

مفهـــوم الاســـتغراب عند صادق جلال العظم

د. محمد الجبر *

فلئن ابتكر الغرب الاستشراق نظاماً معقداً من المؤسسات والأجهزة والممارسات الإيديولوجية بغية استعماله أداة في تنظيم عملية استعباد الشرق وتبريرها وتطبيعها وترسيخ علاقة الهيمنة الإمبريالية بين الطرفين؟ فلم لا يلجأ الشرق إلى ابتكار نظام الاستغراب جهازاً ثورياً وسلسلة من المعاناة من أجل كسر هذه العلاقة وتنظيم عملية تحرير الشرق من ربقة الغرب بصيغة الاستثمارية.

* باحث وأستاذ في جامعة دمشق
- العمل الفني: الفنان رشيد شمة

ومن هنـا نلاحـظ القائمة بـين هذين النظامين (الاستشـراق والاستغراب) ليست علاقـة تماثـل، بـل إنها علاقـة اختلاف. فالوظيفـة الرئيسية للاستشراق هي التزوير التاريخي

وخلق صورة ملتويـة للشرق تنسجم ونية الغرب في استعبـاد الشرق واستغلاله ونهبه، وذلك من أجـل تسخيرها في قهـر الشرقي وتحطيـم إنسانيته. أمـا الاستغراب، فتكمن وظيفتـه في استنطاق الغـرب والكشف عن حقيقتـه واستملاك أدوات تقدمـه، وإعادة الإنسانية المسلوبة إلى الغربي والشرقي معاً.

وتحاول هـذه الورقة إلقـاء الضوء على مشكلة الاستغراب عند أحد المفكرين العرب السوريين وهـو أستاذنا صادق جلال العظم. من خـلال كتابه المعنون «دفاعـاً عن المادية والتاريخ» والذي صدر عام ١٩٩٠.

والـذي يعتـبر بحـق حدثـا فلسفياً من أهـم أحداث صـيرورة الفكـر الفلسفي في العـالم العربي. وهو يتميـز بالفعل عن غيره من الكتب الفلسفيـة بتماسك رؤيته وشمول عرضه ووضوح شرحه وعمق طرحه، لا على الصعيد العربي حسـب، وإنما على الصعيد العالمي أيضاً، فهذه الباحثة المستشرقة كوهار أغينان في بحثها حول بنيـة الفعل الفلسفي العربي المعاصـر، رأت بأن الدفاع عن المادية والتاريـخ يمثـل حدثـاً هامـاً في الأوساط الفلسفيـة في القرن العشريـن، على اعتبار أن هـذا الكتاب والذي صـدر باللغة العربية تناول فلسفة الحقبة الحديثة من موقع نقدي متقدم ولعله أيضاً أسطع مثل وأكمله على ما نسميه الاستغراب.

ويتجلى استغـراب صادق العظم وإدراكه للمغزى الثوري العميـق للثورة الثقافية أكثر ما يتجلى في الطريقة التـي تناول بها نشوء فلسفـة الحقبة الحديثـة وعلاقته مع نشوء العلم والقطيعة التي حققتها هذه الفلسفة مع الخطـاب الأرسطي برمته وفي جميع أشكاله (العربية والسكولائية).

فهذه الطريقة تشير إلى أن القطع مع البيان والعرفان لم يكن كافياً، وإنما كان هناك حاجه إلى القطع مع البرهان الأرسطي الذي ينتمي في جوهـره إلى الحقب ما قبـل الرأسمالية، ومـن ثم في النهايـة إلى المنظومـة الفكرية ذاتهـا التي ينتمـي إليها البيـان والعرفان، وذلك بعكـس ما يصرح به الجابري في «بنية العقـل العربي»، حيث يقـول : «أما بالنسبة للبرهان، فالأمر يختلف تماماً فمن جهة أولى يتعلق الأمر بمنهج في التفكير، وبتصور للعالم يختلفـان تماماً عن المنهـج والتصور اللذين تم إرساؤهما في الثقافـة العربية الإسلامية بمعطياتها الخاصـة: اللغة والديـن» ثم إن

الرشدية لم تفلح في القطع مع البرهان الأرسطي، برغم ما حققته من تقدم ضمن إطار الفكر القروسطي، ومن ثم فهي تطل محدودة النفع بوصفها حافزاً تراثياً للتقدم في الوطن العربي في العصر الحديث، وذهبنا إلى أن الذي مثل قطيعة فعلية في تراثنا مع منظومة الفكر القروسطي، بما في ذلك البرهان الأرسطي، هو الخلدونية، وذلك على الصعيد الاجتماعي والتاريخي، ومن ثم إن الخلدونية هي الحافز التراثي المطلوب لتحرير الفكر العربي من تخلفه وتبعيته.



والنقطة الجوهرية هنا هي أن نشوء العلم، والذي يتم تلبية لحاجات تاريخية لقوى صاعدة، يستلزم البدء بقطيعة فلسفية، وأن الأخيرة لا تتم إلا بعد أن يستكمل العلم نشوءه وتخثره في جماعات ومؤسسات معينة مرتبطة بالقاعدة الإنتاجية. وهذا بالضبط ما تم في أوروبا في القرن السابع عشر، عصر الثورة الثقافية العلمية الكبرى، عصر برونو وغاليليو وكبلر وغاسندي وديكارت وهوبز ونيوتن.

ففي ذلك القرن بالذات، استكملت الفلسفة الأوروبية، بدعم من الثورة العلمية وعلى أساسها، قطيعتها مع الفكر القروسطي، بما في ذلك البرهان الأرسطي والسكولائية. ونجد في هذا الصدد تعبيراً بليغاً ودقيقاً عن هذه القطيعة في كتاب «دفاعاً عن المادية والتاريخ»، حيث يقول صادق جلال العظم: «إذا حاولنا مراجعة أبرز المقولات وأهم التصورات التي سيطرت على الخطاب الفلسفي وتفسيره للعالم قبل المرحلة الحديثة

نجـد أنها تضـم التالي: الماهيـة، الجوهر، العرضـ، المثـل، الفيضـ، الغايـة، الوجود بالقوة، الوجـود بالفعل، الصـورة، الهيولى، الله، التيسير، التخيير.. إلخ.

إذا انتقلنـا إلى الفلسفـة الحديثة فماذا نجد: تراجعاً بطيئاً، ولكـن متزايداً ومؤكداً لهذه المقـولات والتصورات جميعـاً لصالح صعود نوع مغايـر منها أخذ مواقع السيطرة علـى الخطـاب الفلسفي الحديـث، مثلاً: المكان، الزمان، الجسم، الذرة، الحركة، العلة الفاعلة، الصفات الأولية، الصفات الثانوية، قوانين الطبيعة، الاستقراء..إلخ.

السـؤال هـو كيـف نفسر هـذا التبدل الجذري الذي طرأ على المقولات والتصورات المسيطـرة على الخطـاب الفلسفـي؟ يبدو لي واضحـاً مـن معاينـة سريعـة للمقولات والتصورات الجديـدة أنها مستمدة ومشتقة كلها مـن العلم الحديث وخطابـه ونظرياته ومشكلاته. باختصار، فرضت الكوزمولوجيا العلمية الجديـدة تدريجياً علـى الفلاسفة (والفلسفـة) خطابهـا وتصوراتها ومقولاتها كما أملت عليهم طبيعـة المشكلات والمسائل والأسئلة التي ينبغي عليهم تناولها ومعالجتها وحـددت لهم نوع الحلـول والأجوبة المقبولة التي يمكنهم تقديمها وطرحها دون الارتداد إلى الفكر الاسكولاتي الوسيط.

نلاحـظ أولاً أن المقـولات والمفهومـات التي يرى العظم أنها تشكل إشكالية (بالمعنى الألتوسيري) الفكر القروسطي هي مفهومات ومقولات أرسطيـة وأفلاطونية في جوهرها وأن مفهومـات الإشكاليـة الجديـدة التـي تبلورت في القرن السابع عشر هي مفهومات غاليليه ونيوتنيه في جوهرها.

من ثم فإن الثـورة الفلسفية التي واكبت الثـورة العمليـة كانت في الواقـع ثورة على البرهـان الإغريقي، ونجـد إرهاصاتها، بل ونجدهـا هي ذاتها ولكـن بصورتها العملية الكامنة، في مقدمة ابن خلدون وهذا الانقلاب الجذري هو بالضبـط ما يغفله الجابري في كلامه المثالي عن للعقـل الأوروبي، حيث إنه يعتبر الاختـلاف بين الإشكاليـة الإغريقية والإشكالية الأوروبيـة القروسطية وإشكالية القـرن السابع عشر الأوروبية مجرد اختلاف عرضـي لا يمـس الجوهر البرهـاني لعقل الأوروبي، كما إنـه يعتبر درجة التجانس بين البرهان الإغريقي والقروسطي وبين البرهان الغاليلـي البيكـوني أعلى بكثـير من درجة التجانـس بين البيان والعرفان من جهة وبين البرهان الأرسطي من جهة أخرى.

بيـد أن صـادق جلال العظـم لا يكتفي ببيان مظاهر القطيعة بين الإشكالية الحديثة والإشكالية القروسطية ولا بإقرار حقيقة هذه

الطبيعة، وإنما يشير إلى أساسها التاريخي الاجتماعي وجذورها الطبقية العميقة في تربة الحضارة الأوروبية الحديثة. فالقوى الاجتماعية الصاعدة المسؤولة عن توفر شروط نشوء العلم هي نفسها المسؤولة عن صنع الثورة الفلسفية المذكورة.

فكما يقول صادق جلال العظم، فإنه «يبقى صحيحاً أن البورجوازية الثورية التي جابهت الوحي بالعقل، واللاهوت بالميكانيك، والآخرة بالطبيعة، والتعمية الاسكولائية بالوضوح العلمي، والقياس الأرسطي- التومائي بالاستقراء البيكوني، هي ذاتها البورجوازية التي جابهت التيوقراطية بالعلمانية، والحقوق الإلهية بالعقد الاجتماعي، والامتيازات الأرستقراطية بالحقوق الطبيعية، وتراتبية الحسب والنسب، واللقب بالمساواة الحقوقية بين البشر، والاستبداد الغربي بالليبرالية والتبعية الإقطاعية بالحرية الفردية».

إنها حركة واحدة تبدت في عدة مظاهر. إنها روح وثابة تحدت القديم وأحدثت قطيعة معه على كل صعيد، مستمدة أسلحتها من العلم وعقلانيته في مجابهة الإقطاع ومؤسساته.

هنا نلاحظ كيف أن صادق جلال العظم يضع الاستقراء البيكوني في مجابهة القياس (البرهان) الأرسطي- التومائي، مثلما يضع الوضوح العلمي في مجابهة التعمية الاسكولائية، بعكس ما يفعله الجابري الذي يضع البرهان الأرسطي والاسكولائية الرشدية في مجابهة العرفان الشرقي (وضمناً في مجابهة البيان السني) ويغيب الفرق الجوهري بين القياس الأرسطي- التومائي والاستقراء البيكوني الغاليلي.

هذا من حيث الانقلاب الجذري الذي أصاب المنهج. وبطبيعة الحال، فقد انعكس ذلك على الرؤية الفلسفية، بالنظر إلى الوشائج العضوية بين المنهج والرؤية. فالبرهان الأرسطي لا يمكن فصله عن الرؤية الفلسفية الأرسطية، بما في ذلك الجانب منها المتعلق بالطبيعة. وعليه، فإن النقد الذي وجهه بيكون وغاليليو صوب البرهان الأرسطي في ميدان الطبيعة قوض في النهاية أركان الرؤية الأرسطية برمتها، وأقام على أنقاضها رؤية فلسفية جديدة.

ويرى مفكرنا صادق جلال العظم أن قلب هذه الرؤية الفلسفية الجديدة تمثل في المادية الميكانيكية (بصورتها الديكارتية والذرية). فهذه الفلسفة شكلت محور النشاط الفلسفي منذ القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر، لكونها شكلت الأساس الفلسفي الأنطولوجي العفوي لعلم الطبيعة الغاليلي النيوتني. وهذا لا يعني بالطبع أن الفلسفات

التي نشأت في تلك الفترة لم تكن سوى صور مختلفة للمادية الميكانيكية. كلا! إن ما يعنيه ذلك هو أن الذي وحد بين هذه الفلسفات المتباينة هو كونها ردود فعل متباينة من قبل فئات اجتماعية متباينة للعلم وفلسفته المتمثلة في المادية الميكانيكية. فهناك من سعى إلى بلورة المادية الميكانيكية بأقصى ما استطاعه من دقة وشمول، كالفيلسوف البريطاني توماس هوبز مثلاً، الذي حاول تأسيس الأخلاق والسياسة على قاعدة الذرات الغاليلية. وهناك من حاول التشبث حتى الرمق الأخير بالرؤية الفلسفية القديمة، مثل جل أساتذة الجامعات المتنفذين في الجامعات الأوروبية. وهناك من أصابه اليأس من المعرفة مثل مونتين ومن دفعه هذا اليأس إلى اللاعقلانية اللاهوتية مثل باسكال. هناك من طور عقلانية مثالية جديدة في مجابهة المادية الميكانيكية واستعمل لهذا الغرض أسلحة الخصم وطرائقه وأساليبه، مثل لايبنتز.

وأخيراً، فهناك من حاول التوفيق بين عالمي الروح والمادة بوضعه حلولاً مادية صارمة لمجال فعل المادية الميكانيكية، مثل أبي الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت. المادية الميكانيكية إذاً هي محور الفلسفة الأوروبية الحديثة مثلما كانت الأرسطية محور الفلسفة العربية الإسلامية والسكولائية المسيحية.

وبعبارة أخرى، فالفلسفة الأوروبية الحديثة هي في جوهرها محاولات متعددة لتنظير الكامن الفلسفي في الظاهر العلمي والتعامل معه. وهي في جلها محاولات واعية في هذا الصدد. ونشير هنا إلى العلاقة الواعية القوية التي كانت تربط هوبز مع غاليليو، ولوك مع نيوتن، وكانط مع النيوتنية في شكلها اللابلاسي، وماركس مع داروين. وعلى هذا الأساس نقول إنه كان من الممكن بناء فلسفة مادية عقلانية جديدة في حضارتنا على قاعدة الثورة العلمية التي أحدثها ابن خلدون في مجالي التاريخ والاجتماع لو تسنى لهذه الثورة أن تتجذر في تربة حضارتنا وتتحول إلى تيار اجتماعي مؤسساتي جارف. ومن ذلك تنبع دعوتنا إلى تبني الخلدونية بديلاً عن الرشدية التي يدعو إليها محمد عابد الجابري.

☆ ☆ ☆